الفصل الثالث

واقع الحياة الغربية المعاصرة

أدى تطبيق المبادئ و الأسس التى سبقت الإشارة إليها فى الفصل الثانى - إلى ظهور أنماط سلوكية عديدة فى المجالات المختلفة فى الحياة الغربية المعاصرة ، خاصة بعد العلمنة الكاملة للمجتمع الغربى فى مرحلة ما بعد الحداثة (**العولمة**) ، تلك التى بدأت تتبلور مظاهرها ابتداء من منتصف الستينيات من القرن العشرين. لذلك ينبغى بيان واقع الحياة المعاصرة فى مرحلة ما بعد الحداثة ، وكذلك الجوانب المتعلقة بالجريمة المعاصرة ، كما أن الترانسفير(**التحول**) له دور بالغ الأهمية فى الحياة الغربية المعاصرة .

ويتطلب الأمر أيضاً إلقاء الضوء على عبادة الشيطان فى الدول المتقدمة، وكيف دخلت إلى الدول النامية بصفة عامة والدول الإسلامية بصفة خاصة .

ولا يخفى على أحد تلك الهيمنة الاستهلاكية الأمريكية على العالم ، وكيفية نشرها فى العالم من خلال آليات العولمة .

وأخيراً ، فإن «الفيديو كليب» يعتبر أحد أهم مظاهر العولمة ، وله دور أساسى ومهم فى تطبيع الحياة اليومية للإنسان تمهيداً لذوبانه فى تيار العولمة .

المبحث الأول

الحداثة المنفصلة عن القيم

حتى منتصف الستينيات من القرن العشرين كانت حياة الإنسان الغربى تتسم بوجود بعض القيم المسيحية التى تحكم حياته الشخصية ، أى أن الحياة الشخصية كانت شبه علمانية . أما الحياة العامة فكانت علمانية بالكامل وخاضعة لآليات العرض والطلب والحتميات الاقتصادية والسياسية الأخرى ، وهى جميعها منفصلة تماما عن القيم الأخلاقية والإنسانية. كانت هناك قيم يمكن الاحتكام إليها فى الحياة الشخصية ، وكانت كلمة "**الضمير**" مقبولة تماما ، أما الحياة العامة فقد سادت فيها **أخلاقيات السوق**. ولهذا السبب كان من الممكن أن نجد أستاذا للفلسفة يدافع عن المادية والإباحية فى الحياة العامة، أما فى حياته الخاصة فلا يقبل مثل هذه الأمور ، فهو يقدس الحياة العائلية، ولا يقبل أن تعيش ابنته مع صديق لها دون زواج ، كما أن سلوكه الجنسى كان محافظا إلى حد كبير. وكان الإعلام يلتزم بهذه القيم والحدود. لذلك كانت المجتمعات الغربية مجتمعات منتجة متماسكة إلى حد كبير.

إلا أن الإنسان الغربى بوجه عام، وفى الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص، قد تجاوز هذه الحدود بعد عام **1965** مع ثورة الهيبيز، وحركة الجنس الحر، إذ انفصل السلوك الشخصى تماما عن القيم الأخلاقية والدينية. لذلك فإن معظم مشكلات المجتمع الغربى الحديث ظهرت بعد هذا التاريخ ، فقد ظهرت مشكلات اجتماعية خطيرة مثل : تآكل الأسرة – الإيدز – الأطفال غير الشرعيين- المخدَّرات – المراهقات الحوامل – الشذوذ الجنسى .....إلخ . ومعنى هذا أن الحداثة المنفصلة عن القيم قد هيمنت تماما على كل مجالات الحياة الإنسانية، وأصبحت هى أساس الخريطة الإدراكية للإنسان الغربى الحديث، ولكثير من شعوب العالم خاصة النخب الحاكمة. وصورة الإنسان الكامنة فى الحداثة المنفصلة عن القيم: هو الفرد صاحب السيادة الكاملة ، مرجعيته ذاته ، والهدف الأساسى من الوجود الدنيوى بالنسبة له هو تحقيق

أكبر قدر من المنفعة الشخصية والمتعة واللذة . فهو إما إنسان اقتصادى أو إنسان جنسى أو خليط منهما. وفى جميع الأحوال هو إنسان مادى لا علاقة له بالخير أو بالشر أو بأى قيم تقع خارج نطاق الحواس الخمسة.

* تتجلى الحداثة المنفصلة عن القيمة فى مجال العلوم الطبيعية ، إذ يتم تحريرها من القيم والأهداف الأخلاقية والإنسانية ويسود الاعتقاد بأن هذا الكون قد خُلق صدفة ، أو خَلق نفسه بنفسه ، أو أن الإله قد خلقه وقرر تسييره حسب قوانين طبيعية مطردة كامنة فيه ، ثم ترك الإله هذا الكون وشأنه يدور كما تدور الآلة.وهذا يعنى أنه لا هدف ولا غرض فى هذا الكون ، وأن كل الحوادث من أى نوع لا تخرج عن كونها ناتجة من حركة المادة فى الكون.

* فيما يتعلق بالمنظومة الأخلاقية التى يجب أن تسود فى المجتمع فى ظل الحداثة الغربية ، فقد تكفل بوضعها كل من داروين ونيتشه . حيث يتراجع التراحم والحب بين أعضاء المجتمع الإنسانى باعتبارهما القوة المحركة للمجتمع الإنسانى ،ويحل محلهما التنافس والصراع بين الأفراد. فحرية المنافسة هى الوضع الطبيعى للإنسان المادى الحديث ، والمنافسة تؤدى إلى الكفاءة وتعظيم الإنتاج واستبعاد من ليس كفئاً . ويصبح حب الذات الدافع الأكبر للإنسان وتسود القوة، حيث يفرض القوى إرادته ، أى: يفرض الأمر الواقع الذى يخدم صالحه. أما الضعيف -إن أراد البقاء- فعليه الإذعان للأمر الواقع ، فهذا الإذعان هو الذى يحقق بقاءه وصالحه.

* تحديث النشاط الإقتصادى فى ظل الحداثة المنفصلة عن القيمة يتطلب تحريره تماما من أى أهداف أخلاقية أو دينية . من ثَمَّ تظهر أنشطة اقتصادية هدفها مادى بحت وهو تحقيق أقصى ربح ممكن بأقل تكلفة ممكنة بصرف النظر عن مدى إشباعها للحاجات الإنسانية . ويتم الحكم على علم الاقتصاد من منظور مدى تحقيقه للأهداف الاقتصادية البحتة ، ويخضع كل شىء لآليات السوق.

* ويحدث نفس الأمر فى مجال السياسة، فيتم فصلها تماما عن القيم والأهداف الإنسانية والأخلاقية والدينية ، ويصبح أساس حركة المجتمع وإدارته ليس القيم الإنسانية والأخلاقية بل ما يطلق عليه " **الصالح العام**" وتتجسد إدارة الشعب

من خلال الدولة المركزية الحديثة تلك التى تصبح غاية فى حد ذاتها، ولا يمكن محاكمتها من أى منظور أخلاقى. وتصبح الدولة مطلقا يتجاوز كل شىء ، ويصبح صالحها هو الهدف النهائى من حركة المجتمع ومن نشاط كل أعضائه ، ويصبح الخير النهائى والأعظم هو مصلحة الدولة العليا التى تتجاوز مصالح الأفراد الشخصية . ويصبح من حق الدولة غزو الآخر، والاستيلاء على أرضه واستباحته وإبادته إن كان ذلك فى صالح الشعب كما تراه الدولة ، وعلى المواطن أن يقبل ذلك، باعتبار أن إرادة الأمة، ومصلحة الدولة هى القيم الوحيدة التى يؤمن بها. فعندما يقرر جورج بوش الابن غزو أفغانستان والعراق لأن ذلك فى مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية ، فعلى المواطن الأمريكى أن يقبل ذلك ، مع أن هذا الأمر يتعارض مع مصلحته الخاصة، ومن أجل تمويل هذه الحروب يتم تخفيض اعتمادات المعاشات، والتأمين الصحى، وإعانات البطالة وكل ذلك فى غير مصلحة المواطن الأمريكى وعلى حساب رفاهيته ، ومع ذلك فليس أمامه إلا الإذعان لما يراه المحافظون الجدد بقيادة جورج بوش الابن.

* وفيما يتعلق بالوظائف والحرف والمهن ، فإنها فى ظل الحداثة المنفصلة عن القيم ، اختلفت اختلافا جوهريا عما كانت عليه فى الماضى. فالوظيفة أصبحت أكثر تخصصا وتتحرك حسب قوانينها الداخلية والذاتية الكامنة فيها والمنفصلة عن أى قيم أخلاقية . وتظهر شخصية الموظف البيروقراطى الذى يؤدى وظيفته بحياد شديد دون تساؤل عن المضمون الأخلاقى لعمله أو عن الهدف الإنسانى منه . على سبيل المثال ، أثناء محاكمة الجنود والقادة الصرب على ارتكاب جرائم الإبادة العرقية الجماعية فى البوسنة والهرسك كان رد هؤلاء الجنود والقادة أنهم ينفذون الأوامر التى صدرت إليهم من رؤسائهم وحسب.

ويتم تحييد مضمون الوظيفة من أى أعباء أخلاقية ودينية ، لذلك يبدى العديد من الأفراد فى المجتمع استعدادهم لأن يوظفوا أجسادهم وحياتهم بأسرها لتحقيق طموحاتهم. وتصبح الوظائف التى كانت فى الماضى مشينة وهامشية -مقبولة ومرغوبة- بل حلم كل أفراد الطبقة المتوسطة ، فوظائف مثل عارضة الأزياء، والممثلة، والمضيفة، والراقصة ....وغير ذلك ، كانت غير مقبولة فى كثير من

المجتمعات لأسباب مختلفة أصبحت حلم الكثير من الفتيات . فعارضة الأزياء تقوم بعرض مفاتنها، وما ترتديه من أزياء لتشجيع النساء على شراء السلعة التى تعرضها . والممثلة قد تلعب أدوارًا تتطلب منها عرض مفاتنها للجمهور بالإضافة إلى أن حياتها الخاصة ملك للجميع. والمضيفة الجوية تسافر كثيراً، وتجبر على ارتداء ملابس معينة وربما تتعرض- شأنها شأن المضيفة الأرضية فى المطاعم والحانات -إلى الاحتكاك بنماذج بشرية كثيرة بعضها غير مقبول بمعايير المجتمع الذى تنتمى إليه . كل هذه الوظائف وغيرها أصبحت أمورا عادية فى الغرب، وانتقلت إلى الشرق، وأصبحت أمراً عاديا . ويرجع السبب فى أن هذه الوظائف أصبحت حلما إلى ارتباطها بقيم مادية مثل: الشهرة وبريق الأضواء والمتعة والثراء.

وتنتشر مسابقات الجمال التى يتحول فيها جسد المرأة إلى شىء محايد لا علاقة له بأى قيم أخلاقيه أو دينية ، ويتطور الأمر لتصبح المرأة ملكة إغراء جنسى مثل: مارلين مونرو ، وبرجيت باردو ، ومادونا.... إلخ . ويتطور الأمر إلى أن يصبح جسد المرأة سلعة تعرض لمن يطلبها؛ فالبغايا يقدمن أجسادهن لمن يريد مقابل أجر محدد. وانتشر فى الغرب ما يسمى **"الجنسى العرضى"** أو **"الف - ورى"** الذى يعبر عن رغبة الإنسان فى أن يشبع رغباته الجنسية فى أى وقت، ومع أى شخص خارج إطار القيم والمثاليات الأخلاقية والاجتماعية ، وهو بذلك يشبه تماما الطعام «التيك أواى» . وفى ظل العلمانية التامة فى الغرب الملحد يصبح البغاء مجرد نشاط اقتصادى تقوم به المرأة لكسب لقمة عيشها نظير جهد عضلى تبذله (Sex Worker) .

* الهدف من ارتداء الملابس هو تغطية الجسد، وستر العورات والعيوب ، ولكن التقدم الغربى جعل الملابس أيضا منفصلة عن القيم الدينية والأخلاقية ، وأصبح هدف ارتداء الملابس جذب الأنظار إلى الجسد، وتعميق الإحساس باللذة والتسخين الجنسى ، لذلك ظهر **"المينى جيب"** ثم **"الميكروجيب"** ثم ظهر مؤخرا أشكال من ملابس النساء فوق البطن والفتحات الأمامية، والخلفية، والملابس التى تكشف الصدر والظهر وغيرها من الملابس الهادفة إلى الإثارة الجنسية . ولم يقتصر ارتداء هذه الملابس على نساء الغرب بل انتشرت بين نساء الشرق كدليل على التطور والتقدم ومواكبة الحضارة والموضة.

ولا شك أن الموضة تعتبر من أهم نتائج الحضارة الغربية المنفصلة عن القيم ، وتعنى الموضة الرغبة الدائمة فى تغيير الملابس مرتين على الأقل كل عام، فهى تجسد رؤية العالم كمادة متحركة،وأن الهدف من الوجود الإنسانى هو الاستهلاك المستمر. ويلاحظ أن كثيرا من مصممى الأزياء من الشواذ جنسيا،ومن أشهرهم فرساتشى الذى قتله صديقه الشاذ عام **1997**م . كما أن الكثير من مصممى الأزياء مات بالإيدز، وأن خمسة منهم ماتوا بالإيدز فى عام واحد. وقد تم حجب مثل هذه الأخبار السيئة عن مصممى الأزياء حتى لا تتأثر صناعة الأزياء ، ودلالة كل هذا هو انفصال هذه الصناعة عن المعايير الأخلاقية والدينية.

* الطعام الذى يأكله الإنسان من أجل المحافظة على حياته، والقيام بواجباته فى تعمير الأرض التى استخلفه الله فيها ، وهذه هى القيمة الأساسية من وراء تناول الطعام . إلا أن الحداثة الغربية المنفصلة عن القيم قد حولت الطعام إلى شىء آخر مختلف تماما عن الوضع الطبيعى ، الذى كانت تقوم فيه الأم بإعداد وجبات الطعام، وتبذل الجهد فى أن يكون شهيا ومفيداً لأفراد أسرتها ، يتم تناوله على مائدة تلتف حولها الأسرة فى جو تراحمى يقوى أواصر الصلة بينهم، ويزيد المجتمع تماسكا، والفرد انتماء. وقد تطور الأمر ولم يعد كما كان، وانتشر الطعام "التيك أواى" الذى يتم إعداده بطريقة نمطية أى متشابه لاروح فيه ولا تغيير ولا تجديد ولا اجتهاد، يشتريه الإنسان غالبا من أنثى تبتسم بطريقة نمطية أيضا. ويأكل الإنسان هذا الطعام وهو يلهث إما ذاهبا إلى العمل أو راجعا منه إلى البيت، أو قد يتم تناوله أمام التليفزيون دون أدنى إحساس بمتعة تناول الطعام ، إنه يشبه الوقود الذى يضعه الإنسان فى سيارته حتى يستمر فى السير. «الهامبورجر» على سبيل المثال طعام لا طعم له ولا لون ولا رائحة ، شىء عام لاخصوصية له.

* وفيما يتعلق بالرياضة التى كان الهدف منها تهذيب الجسد والنفس، وتدريب الناس على التعاون والتنافس الرقيق، وقبول الهزيمة بصدر رحب . لقد تغير كل ذلك واقتحمت مبادئ وقيم اقتصاديات السوق مجال الرياضة من أوسع الأبواب ، وأصبحت الرياضة منفصلة تماما عن أى قيم إنسانية أو أخلاقية . وأصبح الهدف

الأساسى للرياضة هو تحقيق الفوز والبطولات، والأرقام القياسية، واستخدام المنشطات، والمخدِّرات لتحقيق ذلك .

ويتطلب التدريب على أى رياضة التفرغ الكامل؛ أى: الاحتراف ، وعملية التدريب أصبحت تتم بقسوة تتنافى مع أبسط القيم الأخلاقية ، وعلى المتدرب الانصياع التام لأوامر مدربه وناديه الذى يستثمر فى جسده .

إن انتشار المصارعة الحرة لخير دليل على انفصال الرياضة عن القيم الأخلاقية والإنسانية ، حيث يكون الهدف من المصارعة هو تحقيق أكبر قدر من الأذى والضرر بالخصم للفوز بالمباراة والجوائز المادية ، حيث تركز هذه الرياضة على القوة العضلية للجسد فقط . كل ذلك يتم وسط حضور جماهير المشجعين؛ لهذا وذلك وفوز أحدهم على الآخر يدخل البهجة والسرور فى قلوب مشجعيه ، دون أدنى اكتراث منهم بالضرر الذى لحق بالطرف المهزوم الذى خسر المباراة .

لقد أصبح بيع وشراء اللاعبين والنوادى وسيلة لتحقيق الشهرة والأرباح . ويتحول أبطال الرياضة إلى نجوم تستخدم فى الإعلانات ، كما يمكن المراهنة على اللاعبين وعلى نتائج المباريات ، كما أن كثيراً من اللاعبين يغيرون جنسيتهم وانتماءهم القومى إن دفع لهم نادٍ أجنبى مبلغا أكبر من المال . وهكذا أصبح الهدف الرئيس من الرياضة هو تحقيق أكبر ربح مادى ممكن للاعبين والنوادى على السواء . وانتهى -إلى الأبد- الهدف الأسمى للرياضة وهو الترويح عن النفس فى أوقات الفراغ ، وحل محل ذلك كله اقتصاديات السوق ذات الهدف الرئيسى بأن كل شىء قابل للبيع والشراء، وتحقيق أقصى مكاسب مادية ممكنة مع التجرد من أى قيم إنسانية وأخلاقية.

المبحث الثاني

الجريمة

حتى الجريمة نفسها قد انفصلت هى الأخرى عن القيم الإنسانية فالجريمة كانت فى الأصل " دوافعها إنسانية " مثل الدفاع عن العِرض أو الشرف أو الثأر أو الطمع أو الحسد وهذه كلها ، بخيرها وشرها وفى نبلها وخساستها أمور إنسانية ، فالإنسان- وحده دون غيره من الكائنات- هو القادر على الدفاع عن شرفه وهو القادر أيضا على الطمع .

وعندما تنفصل الجريمة عن القيم الإنسانية (**خيرها وشرها**) تظهر جرائم من نوع جديد منها على سبيل المثال :

(أ) **الجريمة الكاملة** : وهى الجريمة التى يتم تنفيذها بطريقة يتصور معها من قام بها أنه من المستحيل على الشرطة أن تعرف مرتكبها مهما حاولت . فالهدف هنا أن يثبت المجرم لنفسه أنه على قدر عال من الكفاءة، وإثبات مهاراته المطلقة .

(ب) **الجريمة التى لا دافع لها سوى التسلية** : مثل هذين الشابين الأمريكيين اللذين قاما بقتل طفل فى شيكاغو فى الثلاثينيات من القرن العشرين بهدف الترويح عن نفسيهما . وينطبق نفس الشىء على الطالبين الأسبانيين اللذين أعدا «سيناريو» مسرحيا تضمن قتل شخص " **ضخم الجثة** " متوسط العمر له رأس كبير " فتركا منزلهما وذهبا إلى محطة «الأتوبيس» وانتظرا حتى وجدا شخصا تنطبق عليه هذه المواصفات ، فقاما بقتله ، ثم ذهبا إلى المدرسة .

(جـ) **الجريمة من أجل التقليد** : مثل المراهق الذى قتل زميله وأكل لحمه فى فلوريدا ، بعد أن رأى مثل هذه الجريمة فى أحد ألعاب الفيديو ، وأبلغ والدته بعدم

إعداد طعام الغداء له لأنه سيكمل المرحلة الثانية من اللعبة . وهكذا تحول العالم الحقيقى إلى لعبة، وتحولت اللعبة إلى عالم حقيقى .

(د) **القتل العشوائى** : وهى الجريمة التى يقوم بها المجرم بقتل عدد كبير من الناس بأن يطلق عليهم النار دون تمييز وبلا سبب واضح سوى رغبته فى ذلك .

أبلغ دليل على انفصال الجريمة عن القيم الإنسانية النبيلة أو الخسيسة والحياد التام ، ما حدث فى ألمانيا ، إذ قام أحد المواطنين بالإعلان على موقعه الإلكتروني بأنه فى حاجة إلى شخص يقوم بأكله (**بعد أن يقوم بقتله**). وقد وجد هذا المواطن ضالته فى شخص وافق على هذا الاقتراح المثير للاشمئزاز ، فالتقى به ، واتفقا وقام الطرف الثانى بتنفيذ المطلوب منه بدقة بالغة وأمانة صارمة ، وهكذا تمت الجريمة عن طريق التراضى ، فكلا الطرفين نفذ نصوص العقد وحقق ذاته ، إن هذا هو الجنون ذاته .

هذه أمثلة بسيطة عن نوعية الجرائم التى ترتكب فى ظل الحضارة الغربية التى سوف تنهار حتما فى القريب العاجل لأنها تجاوزت كل الحدود والقيم ، إنها حضارة لا عقل لها .

* تمثل أفلام رعاة البقر " **الكاوبوى** " المسماة ويسترن western مثلاً جيداً على الحضارة المنفصلة عن القيم . فبطل الفيلم هو الرائد (Pioneer) الرجل الأبيض الذى يذهب إلى البرية (**أرض بلا شعب**) ليكتشفها ويفتحها ويستقر فيها بعد أن يسرقها من أصحابها ويطردهم منها ، وهو يذهب إلى البرية متحررا من أى قيم وليس فى يده إلا مسدسه الذى يستخدمه " **لتطهير** " الأرض من سكانها الأصليين . ثم يُظهر الهنود على أنهم أشرار – مع أنهم هم أصحاب الأرض – إرهابيون لا يتركون رعاة البقر وشأنهم يرعون أبقارهم ويبنون مزارعهم (**مستوطناتهم**) على أرضهم وأرض أجدادهم . وهكذا يجعلنا الفيلم ننسى أن رعاة البقر هم المحتلون الذين يمتلكون أسلحة الدمار الشامل .

عادة ما يظهر الفيلم أن الكاوبوى يحصد الهنود حصدا برصاص مسدسه دفاعا عن مزرعته الشاسعة، وعن حقوقه المطلقة التى سلبها من الآخرين . وهكذا نستمتع

بـالفيلم دون أن نـدرك أن الكـاوبوى (راعـى البقـر) هـو فى واقـع الأمـر اليهـودى الصهيونى، والإنسان الأبيض الاستعمارى الذى نهب ديارنا وثرواتنـا، ومـا زال حتـى الآن يفعـل ذلـك بوسـائل شـتى ، وأن الهنـود فى حقيقـة الأمـر هـم نحـن العـرب والفلسطينيون ، وأن البرية هى فى واقع الأمر العالم الثالث بأسره ، أرض بلا شعب ، أو شعب ينظر إليه الإنسان الغربى الأبيض على أنه مادة استعمالية يمكن توظيفها لخدمته. وهكذا نستوعب الحداثة الغربية بلا وعى ولا إدراك من جانبنـا ، فقـد جـاءت مغلفـة تغليفاً أنيقاً، جزءا عضويا كامنا فى فيلم لذيذ مسلٍّ .

* ولا يقتصر الأمر على أفلام «الكاوبوى» ، بـل إن «الكـارتون» الـشهير المـسمى "توم وجيرى " يبدو لأول وهلة مسليا ومضحكا ، ولكننا لو تعمقنا قلـيلا لاكتـشفنا ما وراءه من أهداف خبيثة ، حيث يصور هذا "الكرتون" العالم الذى نعيش فيه خاليا تماما من أى قيم أو مثاليات . فالعلاقة بين القط "تـ ـوم" والفـأر "جيـ ـرى" علاقـة صراع دائم وإن كانت غير دموية - على عكس علاقة «الكـاوبوى» والهنـود - لـذلك نجدهما دائما فى حالة مطاردة ، والصراع بين الاثنين لا ينتهى ، إذ يبدأ ببداية الفـيلم ولا ينتهى بنهايته.

إن الهدف الحقيقى لهذا «الكارتون» ، إظهار العالم على أنه غابة مليئة بالـذئاب التـى تلبث ثياب القط "توم" والفـأر " جيرى " . وعـادة مـا يقـوم الفـأر اللذيـذ المـاكر باستخدام كل الحيل التى لا يمكن الحكم عليها أخلاقيا ، فهى لذيذة وذكيـة وناجحـة للقضاء على خصمه القط الغبى ثقيل الظل .

والآن نسال أنفسنا ما هى وظيفة القط ؟ الإجابة هى حراسة المنزل، ومـا فيـه، ومـا هى وظيفة الفأر ؟ الإجابة هى سرقة المنـزل والتهـام مـا فيـه . ولكـن المنـزل هـو عـالم الإنسان والحضارة والقـيم ، أمـا الفـأر فهـو عـالم الطبيعـة والمـادة الخاليـة مـن القـيم والمثاليات. فانتصار الفأر "جيرى" على القط "توم" هو انتصار عالم الطبيعـة والمـادة (الذى يمثله الفأر جيرى، وهو فى الحقيقة الرجل الأبيض القوى) عـلى عـالم الإنـسان

صاحب القيم (الذى يمثله القط "توم") وهو فى حقيقة الأمر إنسان العالم الثالث والضعفاء بوجه عام . وهكذا تترسخ هذه القيم المادية فى وجدان أطفالنا .

* لقد أصبح الفن فى ظل الحداثة الغربية المنفصلة عن القيم منفصلاً تماما عن القيم الجمالية (الكامنة فى العمل الفنى) وعن القيم الإنسانية ، إذ ينظر للعمل الفنى باعتباره تعبيرا عن رؤية صاحبه وعواطفه ومزاجه وحسب ، وهكذا يصبح الفن تعبيراً ذاتيا عن الفنان صاحب إرادة القوة الذى يحاول الوصول إلى أشكال فنية فريدة خاصة به تعبر عن ذاتيته . والفنان يتناول فى أعماله ما يريد بغض النظر عن مضمونها الإنسانى أو الأخلاقى ، فحرية الفنان مطلقة تماما مثلما أن ذاته مطلقة . ويصبح الفن نسقا إبداعيا مستقلا له آلياته المستقلة وأهدافه الفنية . ويصبح الحديث عن الأدب للأدب، والفن للفن، أو أدبية الأدب وفنية الفن ، لذلك يتجه الفن نحو التجريد، وتآكل الشكل، ويتصاعد الإحساس بضرورة التخلى عن الحدود القائمة ، ويصبح التجريب نهاية فى حد ذاته ، فتظهر أعمال فنية تشير إلى ذاتها وحسب ، ولا تشير إلى أى واقع خارجها . ويتحول الفن إلى زخرفة هندسية أو إلى ما يشبه اللعبة التى لا تعرف أى حدود، ومتحررة تماما من أى قيود .

لقد ظل الفن التشكيلى فى الغرب منذ عهد النهضة متماسكا يحاكى شيئا ما فى الطبيعة المادية أو الإنسانية . ولكن مع بداية القرن العشرين يحدث شىء ما فيتفكك الشكل، ويظهر الواقع الإنسانى والطبيعى فى لوحات الفنانين على هيئة مكعبات ومربعات ودوائر وألوان متداخلة . ولقد أقيم معرض للوحات موندريان فى التيت جاليرى فى لندن عام **1996**م ، كان يهدف إلى بيان تطوره ، يبدأ المعرض بمنظر طبيعى فيه أشجار ومنازل ، وينتهى بلوحة مكونة من أربعة مربعات وخطين : واحد أحمر والآخر أزرق فهى لوحة لا تشير إلى شىء خارجها .

فى أحد أفلام الممثل والمخرج الأمريكى وودى ألين ، الذى يدرك الجوانب المظلمة فى الحداثة الغربية المنفصلة عن القيم ، يسير بطل الفلم فى المتحف حتى يصل إلى إحدى هذه اللوحات فيجد بجوارها فتاة جميلة ، فيقرر أن يتعرف عليها ويخطب ودها

فيسألها : " ماذا تقول هذه اللوحة ؟ " فتجيب الفتاة : " إنها تؤكد مرة أخرى سلبية العالم ، فراغ الوجود الموحش المتوحش ، حيرة الإنسان الذى فرض عليه أن يعيش فى أزلية مجدبة بدون إله، وكأنه لهب صغير يهتز فى فراغ هائل لا يوجد فيه إلا الخراب والفزع والمذلة التى تصوغ للإنسان قيدا كالحا لا جدوى من ورائه ، فى كون أسود عبثى " . وهذا وصف لا بأس به لعالم الحداثة الغربية المنفصل عن القيم وللإنسان الذى يتحرك داخله . ولكن البطل فى مسعاه لخطب ود الفتاة يسألها : " ماذا تفعلين يوم الأحد ؟ " وتجيب الفتاة قائلة" سأنتحر"، ويسألها البطل : " وماذا عن يوم السبت ؟ " أى يوم واحد قبل انتحارها ، فهو يريد أن يتشبث بشكل كوميدى حزين بقيمة الحب فى هذا العالم العدمى المظلم .

ولنعرف مدى ما وصل إليه الفن من انحطاط فى ظل الحداثة الغربية ، إن شهرة " أندريه سيرانو " الفنية تعود إلى لوحة بعنوان " **فلتتبول على المسيح**" ، حيث وضع الفنان صورة المسيح " **عليه الـ سلام** " على الصليب فى البول . أما شهرة المصور الفوتوغرافى " **روبرت ما بلثورب** " فتعود إلى أنه يصور نفسه فى أوضاع جنسية شاذة. أما جبريل / بيترو تيكن، وهو مصور فوتوغرافى ، فإنه يستخدم أجسام الموتى فى أعماله الفنية .

يعتبر الفنان الأمريكى " **وورهـ ول** " هو الأب الحقيقى لذلك التيار الجمالى المنفصل عن القيم . و مشروع " **وورهول** " هو أن ينفصل الفن تماما عن أى قيم أو معايير وينزع عنه أى قداسة ، ولذا فإن الفن الهابط عنده لا يختلف عن الفن الرفيع . وقد أخرج عدة أفلام أولها فيلم " **النوم** " الذى يستمر عرضه لمدة عدة ساعات ، تسلط فيه الكاميرا طيلة الوقت على شخص نائم يتحرك عشر دقائق أو ربع الساعة . وقد تبع ذلك بفيلم آخر هو فيلم " **إمباير** " ويتكون الفيلم من لقطة واحدة لمبنى إمباير، أطول ناطحة سحاب فى العالم حتى ذلك الوقت ، وتستغرق اللقطة ثمانى ساعات والحركة الوحيدة هى خفوت ضوء النهار التدريجى إلى أن يأتى الغروب ثم يلف ظلام الليل المبنى .

وفى فيلم " **فتيات سيلزيا** " تعيش مجموعة من الشباب حياة متسيبة تماما ، منفصلة تماما عن أى معايير أو حدود . فيمارسون الجنس، ويتعاطون المخدِّرات ويحقنون أنفسهم بالمورفين فى فندق متهالك فى مانهاتان . وقد أطلق عليهم وورهول "**سوبر ستار** " أى النجوم السوبر.

وتستمر الحداثة الغربية فى مجال الفن لتصل إلى أفلام " **سنف م . وفيز** " أو أفلام الموت، وهى أفلام يختلط فيها العنف والجنس بطريقة متطرفة وكثيرا ما تنتهى مثل هذه الأفلام ببطلة الفيلم وهى فى حالة نشوة جنسية، ويتم قتلها فى اللحظة الأخيرة التى تصل فيها إلى قمة نشوتها الجنسية . مثل هذا المنظر يتكرر فى الأفلام الإباحية العادية ، ولكن فى أفلام الموت يتم الذبح بالفعل . نعم تقتل الممثلة التى تقوم بدور بطلة الفيلم . وعادة ما يتم الإعلان عن الفيلم بعبارة " **صور فى أمريكا اللاتينية ، حيث العمالة رخيصة** " . ويدافع مخرجو مثل هذه الأفلام من منظور الإبداع والحرية والثورة . . . إلخ[1] .

❊❊❊

(1) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر : د. عبد الوهاب المسيرى ، دراسات معرفية فى الحداثة الغربية ، مكتبة دار الشروق الدولية ، الطبعة الأولى ، 1427 هـ / يناير 2006 م . ص ص 259 – 278 .

المبحث الثالث

الترانسفير

كلمة ترانسفير (Transfer) فى اللغة الإنجليزية تعنى النقل ، وتستخدم عادة للإشارة إلى طرد عنصر سكانى من محل إقامته وإعادة توطينه فى مكان آخر . ويعبر الترانسفير عن شىء جوهرى فى الحضارة الغربية الحديثة المنفصلة عن القيم ، فهذه الحضارة ترى العالم مادة فى حالة حركة دائمة يمكن تحريكها وتوظيفها لخدمة أهداف الرأسمالية . فالطبيعة قد وجدت ليهزمها الإنسان ويسخرها لخدمته ، والإنسان ذاته كيان مادى متحرك لا يختلف عن الكيانات الأخرى ، يمكن نقله وتحريكه من مكان إلى آخر وتوظيفه لتحقيق أهداف الرأسمالية باعتباره مادة استعمالية لا قداسة لها . وقد تطور استخدام الترانسفير مع تطور الحضارة الغربية منذ بداية الحداثة الغربية حتى الآن، ويمكن توضيح ذلك فيما يلى :

1- أول ترانسفير كان فى عهد الإصلاح الدينى وكان لغويا ، حيث قام المصلحون الدينيون البروتستانت بنقل المفاهيم الدينية من المستوى المجازى إلى المستوى المادى. حيث تحولت كلمة " **صهيون** " إلى رقعة جغرافية اسمها فلسطين ، وتحول التطلع الدينى لها إلى حركة نحو استيطانها ، وتحولت مدينة أورشليم (**مدينة الإله**) إلى القدس الأرضية التى يجب الاستيلاء عليها . وهذا الترانسفير اللفظى هو المقدمة للترانسفير الفعلى للحركة الصهيونية الاستيطانية التى انتهت بقيام دولة إسرائيل .

2- واكب الإصلاح الدينى ما يطلق عليه الثورة التجريدية ، وهى ثورة جعلت الإنسان قادرا على التعامل مع الأشياء من منظور مجرد عام . حيث يهتم الإنسان فقط بالقيمة التبادلية للأشياء لأنها هى مصدر تكوين الثروات وزيادة الرأسمال وتحقيق أقصى ربح ممكن . ومن أهم مظاهر الثورة التجريدية ظهور " قطع الغيار"

تلك التى ينبغى أن تكون متشابهة تماما وقياسية حتى يمكن إحلال (ترانسفير) قطعة غيار محل الجزء التالف فى أى مكان وزمان . والثورة التجريدية وقطع الغيار كان ظهورها مرتبطاً بالتطور العسكرى لأوربا . فقطع الغيار ، على سبيل المثال ، تم تطويرها فى أتون الحرب حيث كان من الضرورى أن يقوم الجندى بتغيير التالف من سلاحه بسرعة حتى يتمكن من استئناف القتال .

3- صاحب ما سبق الترانسفير الحقيقى ، الذى تمثل فى حركة الاكتشافات الجغرافية للعالم الجديد(**الأمريكتين وأستراليا**) وطريق رأس الرجاء الصالح، وبعض أجزاء العالم القديم ، حيث انتقل الإنسان الغربى من عالم العصور الوسطى إلى أماكن أخرى فى العالم فاستعمرها، وحولها إلى مادة استعمالية لتحقيق أهدافه فى زيادة الرأسمال وتحقيق أقصى الأرباح عن طريق استغلال الطبيعة والإنسان معاً .

4- بلغت عملية الترانسفير ذروتها فى الحل الاستعمارى لمشاكل أوربا ، حيث تم نقل وتصدير المشاكل من أوربا إلى الشرق، ومن بينها المشاكل الاجتماعية . وكانت أول هذه العمليات نقل الساخطين سياسيا ودينيا إلى أمريكا الشمالية ، ونقل المجرمين والفاشلين فى تحقيق الحراك الاجتماعى فى أوربا إلى الأمريكتين وأستراليا ، ثم تبع ذلك عمليات ترانسفير ونقل أخرى هى :

أ- نقل أكثر من **15** مليون إفريقى إلى الأمريكتين لتحويلهم إلى مادة استعمالية للعمل فى المزارع المملوكة للرجل الأبيض فى هذه البقاع دون الحصول على أى أجر ، ومن يحاول الهرب منهم يتم تعذيبه حتى الموت.

ب- نقل الهنود الحمر وهم السكان الأصليون للأمريكتين وأستراليا إلى مواقع أخرى، أو إلى العالم الآخر .

جـ- نقل جيوش أوربا إلى كل أنحاء العالم ، وذلك لاستعمارها والهيمنة عليها واستغلال مواردها وسكانها لصالح الدول الغربية المتقدمة .

د- نقل الفائض البشرى من أوربا إلى جيوب استيطانية فى كل أنحاء العالم (الجزائر – جنوب إفريقيا – فلسطين) لتكون ركائز للجيوش والحضارة الغربية.

هـ - نقل بعض سكان المستعمرات إلى بلاد أخرى (الصينيون إلى ماليزيا – الهنود إلى عدة أماكن – اليهود إلى الأرجنتين) كشكل من أشكال الاستعمار الاستيطانى ، حيث تشكل هذه الأقليات جيوبا استيطانية داخل البلاد التى تستقر فيها .

و- نقل العناصر المقاتلة من دول آسيا وإفريقيا وتحويلهم إلى جنود مرتزقة فى الجيوش الغربية الاستعمارية ، مثل الهنود وخصوصا السيخ فى الجيوش البريطانية . كما تم فى الحرب العالمية الأولى نقل وتهجير **132** ألفًا من مختلف سكان المغرب العربى إلى فرنسا لسد العجز الناجم عن تجنيد الفرنسيين ، بالإضافة إلى تجنيد بعضهم للقتال فى الجيوش الفرنسية . ويشهد على مثل هذه العمليات مقابر الكومنولث فى القاهرة والسويس .

ز- نقل اليهود الصهاينة إلى فلسطين ، وهذه العملية فى جوهرها تصدير لإحدى مشاكل أوربا الاجتماعية إلى الشرق . حيث إن يهود أوربا هم مجرد فائض بشرى لا نفع له داخل أوروبا ويمكن توظيفه فى خدمتها فى فلسطين . كما أن السكان العرب وفلسطين ذاتها مادة يمكن استغلالها ، لذلك تم نقل العرب من فلسطين ونقل اليهود إليها،وتمت إعادة صياغة كل شىء بما يتلاءم مع مصالح الإنسان الغربى .

س- نقل وتصدير المشاكل الاقتصادية في أوروبا إلى دول العالم الثالث ، حيث يتم تصدير السلع الفائضة والكاسدة والرديئة إلى المستعمرات، ومازال يتم هذا العمل حتى الآن . وفى الوقت الحاضر تقوم الشركات العابرة للقارات (**المتعددة الجنسيات**) بإقامة الصناعات الملوثة للبيئة فى دول العالم الثالث . كما أن الدول الغربية تقوم بدفن النفايات الصناعية، ومخلفات المفاعلات النووية فى دول العالم الثالث (**الصومال على سبيل المثال**) .

وتجدر الإشارة هنا ، إلى أن برنامج الخصخصة المصرى أدى إلى بيع شركات الأسمنت والأسمدة (وهى صناعات ملوثة للبيئة) للشركات المتعددة الجنسيات ، حيث تقوم بتصدير الإنتاج إلى الخارج وبيعه فى الداخل بالأسعار العالمية محققة أرباحا خيالية من وراء ذلك . كما أن السيراميك والغزل والنسيج والصباغة والتجهيز وغيرها من الصناعات الملوثة للبيئة أقيمت فى مصر ويصدر إنتاجها إلى الخارج .

5- تبلور لفظ النقل (**الترانسفير**) فى وجدان الإنسان الغربى مع هيمنة عقيدة التقدم، حيث إن التقدم هو حركة دائمة، وانتقال من وضع إلى آخر، ومن مرحلة إلى أخرى. وأصبح الهدف من الحياة هو التقدم الدائم . ويلاحظ أن لفظ التقدم هو دال بلا مدلول تقريبا ، لم يعرف الإنسان الغربى الهدف النهائى من التقدم ، فكل ما هنالك أهداف مرحلية ، وعلى هذا فإن النقل أو الترانسفير مثل التقدم ، كلمة تشير إلى حركة دائمة بلا مضمون او ما يطلق عليه"صيرورة" دائمة .

6- إن فكرة النقل أو الترانسفير قد تأصلت تماما فى وجدان الإنسان الغربى ، فلا يمكن رؤية الطبيعة البشرية فى الغرب إلا فى إطار الترانسفير . ويظهر ذلك جلياً فى تعريف **"ماكس لرنر"** للإنسان الحديث بأنه الإنسان القادر على تغيير منظومة القيم التى يؤمن بها بعد وقت قصير ، أى أن الانسان كائن حركى يمكنه أن ينتقل بسرعة من قيم إلى أخرى ولا ولاء عميق لأى شىء ، ولا يشعر بأى ندم أو تأنيب ضمير إن غير قيمه وهويته وشخصيته وأهواءه .

وفى هذا المقام ، تجب الإشارة إلى أن التحديث فى الغرب يرفض تماما كل العلاقات الكونية الثابتة (**مثل علاقة القرابة**) ويحاول القضاء عليها . كما أن التحديث يخضع كل العلاقات للتفاوض، وكل القيم للتداول ، والأمر الذى يحقق للإنسان الحديث حركة عالية وكفاءة منقطعة النظير فى أداء أى مهمة توكل إليه دون رحمة أو تأنيب ضمير ، والطفل غير الشرعى مجرد تماما من أى قيم أسرية، أو تقاليد اجتماعية؛ فلا يعرف عمه أو عمته وخاله أو خالته أو أى أحد من أقاربه، لذلك فهو ينفذ ما يؤمر به دون أى اعتبارات اجتماعية أو دينية أو خلقية ، حيث يتعلم الطفل القيم المختلفة من خلال العلاقات الأسرية فيشب على احترام القيم لأنه تربى عليها .

7- يظهر النقل أو الترانسفير بصورة واضحة فى المنظومة الجمالية ، حيث تظهر ملابس كل سنة لا علاقة لها بملابس السنة الماضية ، لذلك يجب على الإنسان تغيير ملابسه باستمرار . ويظهر موديل جديد من أنواع السيارات المختلفة كل عامين أو ثلاثة فيغير الإنسان سيارته . كما أن انتشار جراحات التجميل هو تعبير عن نفس الظاهرة، حيث يغير الإنسان وجهه ويختار وجها جديداً قد يعرض له أحيانا مسبقا على شاشة الكمبيوتر، ويقوم بتعديله مع أحد الخبراء ثم يتم تنفيذه . وتُعبر العدسات اللاصقة الملونة، والنهود الصناعية، وغيرها عن نفس هذه الظاهرة .

8- الحضارة الغربية فى جوهرها حضارة ترانسفير ، فهى حضارة الفوارغ، والنفايات والتآكل، أو التقاوم المخطط . حيث يشرب الإنسان زجاجة عصير، أو مياهًا غازية ويُلقى بالزجاجة الفارغة، ويأكل «الساندوتش» ويلقى بكمية من الأوراق التى تغلفه، كما أن الحضارة الغربية هى حضارة التغليف اللامع للهدايا التافهة التى تقدم فى المناسبات المختلفة خاصة أعياد الميلاد ، فالهدايا ظاهرها لامع يتم تلميعه بدرجات مختلفة ، ويتم تغييره بسرعة خاطفة .

9- يشكل المسكن نقطة الثبات فى حياة كثير من البشر والمأوى الدائم لهم . إلا أن السكن تحول إلى ترانسفير فى ظل الحياة الغربية المعاصرة ، حيث يرى الإنسان الغربى أن السكن استثمار ، بل أصبح المنزل هو أهم استثمار بالنسبة للأمريكيين بل الاستثمار الوحيد لغالبيتهم . وبدلا من أن يعيش الإنسان فى منزله، ويستقر فيه، ويعيد صياغته بشكل يتفق مع تطور احتياجاته فإنه يبيعه بعد فترة وجيزة ليحقق ربحا ، على سبيل المثال فإن المواطن فى الولايات المتحدة الأمريكية يغير مسكنه كل خمس سنوات . ولهذا السبب أصبح المسكن محايدا أربعة جدران وسقف لا خصوصية فيه، حتى يمكن لصاحبه أن ينتقل منه ويبيعه إلى شخص آخر بسهولة ويسر ويحقق ربحا عاليا . ومن هنا بدأت الأزمة المالية العالمية فى الولايات المتحدة الأمريكية عام **2008** م ، والسبب فى ذلك الطمع والجشع من الجميع: المواطن، والشركات العقارية، وبنوك الاستثمار، وقبل ذلك كله الحكومة الأمريكية التى تركت الجميع يعمل دون أى رقابة أو تدخل منها ، فكانت الكارثة التى سقطت على رءوس الجميع .

10- الإنسان الغربى الحديث لا يغير سكنه فحسب ، بل إن الكثيرين يغيرون محال عملهم حتى يحققوا ما يطمحون إليه من حراك اجتماعى . وتعتبر الحركة الدائمة هى أهم مظاهر التحديث ، ولعل الحركة اليومية للملايين من مكان إلى مكان وحركة ملايين السياح من دولة لأخرى تعبير عن ذلك . وفى كثير من الأحيان يكون مجرد الملل والرغبة فى التغيير هى الدافع الأساسى وراء التنقل .

11- السائح شخصية علمانية لا يؤمن بالثوابت منفصل عن أى قيم ، يجمع فى شخصية ثنائية الإنسان الاقتصادى الذى يراكم المال، والإنسان الجسمانى الذى ينفق المال بشراهة للحصول على أقصى متعة شخصية دون أية اعتبارات إنسانية أخرى . كما أن الدولة التى تستقبل مثل هذا السائح تنظر إليه باعتباره مصدراً للحصول على المال الذى ينفقه ، فلا قداسة للسائح ولا المجتمع المضيف له.

12- ما يحدث للمسنين فى الدول الغربية من نقلهم بعد بلوغهم السن القانونية إلى بيوت المسنين ما هو إلا نوع من الترانسفير . فهؤلاء المسنون قد استنفدوا عمرهم الإنتاجى الافتراضى ، ومن ثم يتركون فى هذه البيوت حتى تحين ساعة موتهم . وكان من المفروض أن يعيش كبار السن مع أبنائهم وأحفادهم لينعموا بالدفء العائلى ، ولكن هيهات هيهات فالكل مشغول بجمع الأموال دون أى اعتبارات إنسانية .

13- الجنس العرضى يعتبر أحد أشكال التنقل (الترانسفير) من أنثى إلى أخرى دون أن يكون بين الرجل والمرأة علاقة عاطفية تتسم بقدر من الثبات . وذلك لأن الأنثى مادة استعمالية لا قداسة لها توظف لتحقيق المتعة . كذلك فإن الرجل الذى يدخل فى مثل هذه العلاقة هو الآخر مادة استعمالية توظفها الأنثى لتحقيق اللذة لنفسها.

وقد تطور الأمر فى الغرب إلى ما يسمى: التفضيل، أو الميل الجنسى بدلا من الطبيعة الجنسية الثابتة للإنسان ، بمعنى أن الإنسان يختار الممارسات الجنسية التى يميل إليها فالذكر من الممكن أن يمارس الجنس مع ذكر آخر ، وكذلك الأنثى يمكنها أن تمارس الجنس مع أنثى أخرى وهكذا . وهناك من يفضل الجنس مع الحيوانات أو مع الأطفال... وهكذا .

14- الأسرة هى النواة الأساسية لأى مجتمع إنسانى ، فى الماضى كان هناك الأسرة الممتدة التى تضم ثلاثة أجيال الجد والأب والحفيد ، إلا أن التطور الحديث فى الغرب جعل الأسرة تنكمش إلى ما يسمى الأسرة النووية التى تضم رجلا وزوجته وطفليهما (يفضل أن يكون الطفلان ذكراً وأنثى حتى يتمكن المجتمع من إعادة إنتاج نفسه) . ويطلق على الأسرة النووية حاليا فى الولايات المتحدة الأمريكية الأسرة الأساسية التى أصبحت الآن أقلية ، وظهرت أنواع أخرى من الأسر، مثل :

* أب يعيش مع أولاده .

* أم تعيش مع أطفالها .

* أم وعشيقها مع أطفالها أو أطفاله أو أطفالهما .

* أم وصديقتها مع أطفالها أو أطفالهما .

* أب وصديقه مع أطفاله أو أطفالهما .

* أم وأب وصديقه وأطفالهم .

15- وأخيراً يصل الترانسفير إلى قمته فيما يطلق عليه: تنميط المجتمع (standardization) وهو أن يتم تنميط السلع المنتجة فى المجتمع وإخضاعها للنموذج الآلى . ثم بعد ذلك يتم تنميط الحياة النفسية للبشر عن طريق صناعة "اللذة" التى تقوم بتنميط أحلام الإنسان ورغباته وتطلعاته من خلال الأفلام والإعلانات والمجلات الإباحية وغير الإباحية . وبتنميط السلع والحياة النفسية للإنسان نكون قد وصلنا إلى الترانسفير الكامل للإنسان خارجيا وداخليا ليصبح مثل زجاجة الكوكاكولا أو قطعة الغيار ، فيمكن نقله من مكان إلى آخر، أو التخلص منه دون أى إحساس بالمأساة والملهاة ، وهذا هو الفردوس الأرضى أو نهاية التاريخ .

16- لقد وصل الترانسفير إلى اللغة الإنسانية وهى أكثر الأشياء ثباتا فى حياة الإنسان. ونقصد هنا علاقة الدّال بالمدلول (أو **علاقة الاسم بالمسمى**) . منذ بداية عصر النهضة الأوربية وحتى الآن هناك إيمان عميق فى الغرب بأن كل شىء خاضع

للتغير، ولا يوجد ثابت إلا قانون الحركة " الصيرورة "فهذه هى حضارة التقدم ، حيث يصبح العالم كيانا متطوراً متغيراً، ولا يوجد فيه ثبات إلا القوة ، فمن خلال القوة يستطيع الإنسان أن يفرض ما يريده . ومن ثم يمكن للقوى أن يمنح الدلالة للكلمات ، فكأن الدّال لا علاقة له بالمدلول إلا من خلال القوة ، وأن الضعيف عليه أن يتكيف مع الأمر الواقع الذى يفرضه القوى وهو ما يطلق عليه البرجماتية. وبناء على ذلك لابد من تقبل تعريف الأقوياء للكلمات والمصطلحات، بل إعادة تسميتها حتى تكتسب شرعية جديده ، ومن ثم تصبح **"فلسطين" "إسرائيل"** وتصبح **"الضفة الغربية " " يهودا والسامرا"** . وينطبق نفس الشىء على كثير من الظواهر التى يجب أن يتكيف معها المهزومون ممن لا حول لهم ولا قوة .

ومن الجدير بالذكر هنا أن نشير إلى ظاهرة الأطفال غير الشرعيين الذين كانوا يسمون بهذا الاسم فى بداية الأمر ، وقد أخذ هذا الاسم يتغير من فترة إلى أخرى ، حتى انتهى الأمر الآن إلى تسميتهم " Love babies" ومعناها **" أبناء الحب / الجنس"** ومهما كان المعنى المقصود ، فإن العبارة الجديدة تخفى الأصول، وتجعل ظاهرة الأطفال غير الشرعيين ظاهرة طبيعية تماما ، وهذا يمثل انتقال (**ترانسفير**) من الحرام والحلال إلى الحياد، تماما مثلما أصبحت المرأة المنحرفة يطلق عليها **" عاملة جنس "** "sex worker".

المبحث الرابع

عبادة الشيطان

عندما تم القبض على بعض الشباب فى مصر، و أطلق عليهم فى ذلك الوقت عبدة الشيطان ، كان الأمر بمثابة صدمة للرأى العام . لقد كان هؤلاء الشباب يذهبون إلى أماكن غريبة مثل المقابر ، ويقومون بأداء شعائر معينة بعضها له طابع جنسى ، أو يذبحون ديكا ويلوثون أنفسهم بدمائه ، ويرتدون ملابس غريبة يتصورون أنها شيطانية ، وقد يطلون وجوههم بمساحيق لا تقل غرابة عن ملابسهم ، وقد يرقصون رقصات تشبه الزار على إيقاع موسيقى «الروك» الصاخبة .

وفى أثناء التحقيق مع هؤلاء الشباب تبين أنهم من **" أبناء الذوات "** أبناء أغنياء مصر الجدد ، الذين أفرزتهم القوانين الاقتصادية غير محسوبة العواقب، خلال فترة الانفتاح الاقتصادى ، وبرنامج الخصخصة، وقرارات تخصيص أراضى الدولة للمحاسيب بأسعار رمزية، وغير ذلك من السياسات الخاطئة ، تلك التى أدت فى النهاية إلى انقسام المجتمع المصرى إلى طبقتين: إحداهما تملك كل شىء وهى قلة قليلة وأخرى لا تملك أى شىء هى الغالبية العظمى من الشعب المصرى المطحون ، وهوت الطبقة الوسطى إلى قاع المجتمع لتنضم إلى ذوى الفقر المدقع !

لقد أدى اكتشاف **" عبدة الشيطان "** إلى انقسام فى الرأى ، فالبعض يرى أن هذه المسألة محصورة فى طبقة الأغنياء الجدد الذين يسافرون إلى الخارج ، فأحضروا هذه العبادة الشيطانية مع ما يحضرون من سلع . أما الرأى الآخر ، فكان يرى أنهم مجرد شباب يلهون . والحق أن كلا الرأيين جانبه الصواب ، لأن هذه قضية اجتماعية خطيرة ينبغى التعمق فى دراستها وربطها بجذورها الفكرية . حيث إن منظومة العبادة الشيطانية ترجع إلى الحداثة المنفصلة عن القيم الدينية والإنسانية السائدة فى الدول الغربية المتقدمة .وذلك لأن هذه الحداثة تضرب بجذورها فى التشكل الحضارى

الغربى الحديث ، وأصبحت أيضا جزءا من تشكيلنا الحضارى ، خاصة بين أعضاء الطبقات الحاكمة والغنية التى تم تغريبها .

هناك العديد من الأساطير الشيطانية السائدة فى ظل الحداثة المنفصلة عن القيم ، من ذلك أسطورة بروميثيوس الذى سرق النار (**المعرفة**) من الآلهة ، وأعطاها للإنسان لكى يبدأ الحضارة، فقامت الآلهة بتعذبيه ، وهناك أسطورة الدكتور فاوستوس الذى باع روحه للشيطان لكى يحصل على المعرفة ليحكم بها العالم،وقبل كل هذا أسطورة السقوط فى العهد القديم ، التى تقول: إن الشيطان أغوى الإنسان، وجعله يأكل من شجرة المعرفة المحرمة ؟ .

فى كل هذه الأساطير ، هناك العنصر الإلهى والعنصر الشيطانى ، وفى جميع الحالات ينضم الإنسان للشيطان ويرفض الإله حتى يصل إلى المعرفة الكاملة، ومن ثم يتحكم فى الكون ويصبح إنسانا متألها ، إرادته ورغباته ليس لها ضابط أو رابط ، وبالتالى فإنه يستمد معياريته من ذاته وحدها ، أى لا يعبد إلا ذاته ، هذا هو جوهر عبادة الشيطان .

الشيطان هنا ليس كائنا له قرون وذيل ، وإنما هو يتمثل فى فكرة إنكار الحدود وإعلاء الذات والإرادة ، وهى فكرة محورية فى الحداثة المنفصلة عن القيم ، ظهرت مباشرة من رؤية داروين وفلسفة نيتشه التى تهاجم العطف والمحبة والعدل والمساواة باعتبارها أخلاق الضعفاء ، والعالم فى منظور هذه الفلسفة ليس سوى حلبة صراع ، لا يوجد عدل أو ظلم ، وإنما فقط قوة وضعف، ونصر وهزيمة، والبقاء للأقوى وليس للأصلح . ومن هذا المنطلق فإن المُسلّم به الوحيد هو إرادة الإنسان القوى البطل المنتصر ، أى الإنسان المتأله ، أى الشيطان بالمعنى الفلسفى .

هذه النزعة الشيطانية تعبر عن نفسها من خلال أفكار بسيطة تتغلغل فى حياتنا اليومية ربما دون وعى منا بخطورتها على العقيدة . فمن أهم قناعتنا فى الوقت الراهن أن الهدف من الحياة هو إشباع الاحتياجات المختلفة، أى البحث عن اللذة وتعظيم الفائدة ، أى أن الإنسان حبيس " **قصته الصغرى** " التى تدور حول تحقيق مصالحه الشخصية دون أى اكتراث بمصالح الآخرين ، وهذا يعنى عدم وجود " **قصة**

كبرى" تلك التى تتمثل فى وجود منظومة فلسفية أو دينية شاملة تجعل للحياة معنى آخر . وهكذا يعيش الإنسان فى حالة خواء روحى لم تعرفه الإنسانية من قبل .

إلى جانب هذا الخواء الروحى أدت الحداثة الغربية إلى تآكل الأسرة كأهم مؤسسة اجتماعية عرفها الإنسان ، وجودها يشعر الإنسان بالطمأنينة والأمان . وهكذا وجد الإنسان نفسه يتيما بالمعنى الحرفى لهذا الكلمة ، يواجه العالم وحيدا بغير معين ، حيث فقد الإنسان المرجعية الدينية والاجتماعية والأسرية .

أدى إحساس الإنسان باليتم إلى ظهور الحاجة إلى جماعة أو تنظيم أو ديانة جديدة تملأ الفراغ الذى خلفه غياب المرجعية وتفتت المجتمع وتراجع الأسرة . الأمر الذى أدى إلى ظهور عبادات وديانات جديدة فى الغرب تشبع هذه الحاجة ، ومن ثم تزايدت العبادات الجديدة ذات الطقوس البدائية الوثنية المغرقة فى اللاعقلانية والجهالة . وانتشر المنجمون والعرافون والسحرة وعبادة **"جايا"** (أى **عبادة الكرة الأرضية**).

لقد تم إحياء العبادات **" الغنوصية "** القديمة التى كانت منتشرة فى الشرق الأدنى القديم فى القرنين الثانى والثالث بعد الميلاد . هذه العبادات الغنوصية تدور فى إطار فكرة **" وحدة الوجود المادية "** ، بمعنى أن الإله يحل فى الإنسان والطبيعة ويذوب فيهما فتتكون وحدة عضوية . فهذه العناصر الثلاثة تتكون من جوهر واحد وهو جوهر مادى طبيعى ، ومن هنا تأصلت فكرة وحدة الوجود . وتنطلق الغنوصية من رؤية اثنينية ازدواجية صارمة ترى أن هناك إلهين وليس إلها واحدا ، إله خفى خير (**إله العهد الجديد**) وإله ظاهر شرير (**إله العهد القديم**) الإله الظاهر هو الإله الصانع الذى خلق العالم المادى .

يفرق الغنوصيون بين الجسد والروح ، الروح ليست من مخلوقات الإله ، بل هى سابقة على الخلق قديمة قدم الكون والإله ، وهى جزء من العالم النورانى ، عالم الإله الخفى الخير . لذلك فإن الإنسان النورانى ينتمى إلى عالم الخلود النورانى لا يحكمه الزمن ولا يدركه الموت . وأن هؤلاء النورانيين رغم طبيعتهم الإلهية ، قُذف بهم فى هذا العالم المادى الشرير بسبب خلل كونى ، فهم يعيشون فى هذا العالم وهم ليسوا منه ولكنهم يعرفون هذا العالم حق المعرفة . لذلك فإن الخلاص وبلوغ الكمال لن يكون إلا

من خلال معرفة باطنية (**غنوص**) بالحقيقة الكلية الشاملة، والمبدأ الواحد المطلق الذى يحكم الكون كله ، وهى معرفة بالإنسان والروح معاً تفضى إلى معرفة بالإله ، لأن الإله فى نهاية الأمر هو الإنسان ، والإنسان هو الإله ، فهما نفس الشىء أو على الأقل ينتميان لعالم واحد، وصيغا من نفس المادة أو الجوهر . لذا فإن الخلاص والكمال هو فى واقع الأمر معرفة تفضى إلى اتحاد الذات الإنسانية مع الإلوهية اتحادا جوهريا . هذه المعرفة ستحرر الإنسان الإلهى من قيود الوجود المادى، ومن الزمن والطبيعة بل من العالم المخلوق بأسره .

تذهب الأساطير الغنوصية إلى أن الإله الخفى الخيّر سيرسل بملخص يحمل المعرفة (**الغنوص**) للخلاص ، فيعلمه للنورانيين الذين سيقومون بخداع حكام العالم المادى بسماواته السبع حتى يصلوا إلى الإله الخيّر الخفى فيتحدوا به . وبعد هذا الاتحاد سيختفى العالم المادى الذى خلقه الإله الصانع الشرير .

إن الغنوصية تحمل العديد من الشطحات التى تناقض صحيح الدين سواء فى الإسلام أو المسيحية ، نوجز أهمها فيما يلى :

1- الغنوصية ترى أن الخلاص لا يكون بالإيمان بل من خلال المعرفة ، لأن الإيمان الدينى يعنى الإيمان بالله الخالق لهذا العالم والمنزه عن النقائص . كما يعنى الإيمان أن الإنسان له حدود وعليه أن يستغل عقله فى الوصول إلى المعرفة . ولكن المعرفة الإنسانية ليست نهائية ولن تحل كل المشاكل لأن فوق كل ذى علم عليم . أما الخلاص الغنوصى فهو يبدأ من افتراض جوهر الإنسان النورانى وأن ما يصل إليه من معرفة كاملة وشاملة تجعله يملك فى يده مفاتيح العالم والسموات السبع ، فهو إنسان متأله مرجعيته ذاته . هذا الإنسان هو ذاته الإنسان الغربى الحديث كما تتصوره منظومة الحداثة المنفصلة عن القيم .

2- الخلاص فى القيم الدينية يكون من خلال الإيمان بالله الذى يرسل رسلاً بمنهج محدد ، جوهره كبح جماح النفس البشرية وتوجيهها إلى عمل الخيرات، وتجنب فعل المنكرات . وعلى المؤمن أن يقيم شعائر محددة من قبل الله لا يجوز تغييرها، ولا

تعديلها أبداً فهى ثابتة . ويبدأ الخلاص بالتوبة عن المعاصى والآثام ثم الانخراط فى العمل الصالح كما هو موضح بالعقيدة ، وجزاء ذلك كله الجنة بإذن الله .

أما الخلاص فى الغنوصية الحديثة فهو عملية كونية هندسية ليس وراءها غرض بشرى ولا رحمة إلهية . ويأخذ الخلاص شكل بحث عن الصيغة السحرية المناسبة والطلاسم والكلمات والعلامات التى يمكن من خلالها التغلب على حكام السموات والأرض وخداعهم . لذلك فإن الخلاص الغنوصى دائماً مرتبط بالسحر والشعوذة . ويعتبر الدكتور/ فاوستوس مفكراً غنوصيا أراد أن يحصل على كل المعرفة بهدف التحكم فى العالم والهيمنة عليه ، ومن أجل ذلك باع فاوستوس نفسه للشيطان .

3- ترى الغنوصية أن الاختلاف بين البشر اختلاف وجودى ، فالمادة التى خلق منها النورانيون مختلفة عن تلك التى خلق منها الجسمانيون. لذلك فإن الأخلاق العادية هى قوانين دنيوية لا يلتزم بها الإنسان النورانى . فهو أرستقراطى سيطر على واقعه ودوافعه، ويضع قوانين أسمى من قوانين هذا العالم . لذلك فإن الدين ينقسم إلى دين للصفوة النورانيين وآخر للجماهير ، ومن ثم فإن التفكير الغنوصى لا يختلف عن التفكير الإمبريالى الاستعمارى العنصرى الذى يفترض أن الإنسان الغربى الأبيض هو سيد العالمين ، وأنه لا يلتزم بأخلاق الضعفاء ولا يعرف أى حدود ، ومن خلال القوة يمكنه أن يفرض ما يريد .

وهذا كله يناقض ما جاء به الأنبياء والرسل من تعاليم تقضى بالمساواة الكاملة بين البشر لا فرق بين أبيض ولا أسود إلا بالعمل الصالح ، والبشر جميعا أمام الله سواء، الكل يلتزم بأوامره ونواهيه .

4- الإنسان النورانى (**الغنوصى**) يملك المعرفة الحقيقية الخفية ، لذلك فهو حر تماما يفعل ما يشاء ، يخرق القوانين، ويسقط الحدود ، بل من واجبه أن يخرق الشرائع ويعيش فى حمأة الرذيلة بكل ما أوتى من قوة فالدعارة فريضة . وذلك لأن الشريعة التى أرسل بها الإله الصانع لإثقال كاهل الإنسان ، وسجنه وتعذبيه ، وهى تعبير عن عدائه للإنسان ، لذلك فإن خرق الشريعة واجب على الإنسان النورانى والدعر هو تحد واع للمعايير التى يفرضها الإله الصانع . إن ارتكاب الرذائل والموبقات

يساعد على إتمام الدورة الكونية للشر ، حيث إن الشر هو شر فى ظاهره وحَسْب، أما فى باطنه فهو الخير كله . لذلك نجد أن الغنوصيين يقدسون بعض الشخصيات الملعونة فى العهد القديم والجديد ، مثل قابيل وقورح وعيسو ويهوذا ، ويعبدون الشيطان . بل إن الثعبان الذى كشف لآدم وحواء سر شجرة المعرفة هو البطل الحقيقى لقصة الخلق من وجهة نظر الغنوصية . فهو رمز تحدى الخالق ورفض الحدود والشريعة، ورفض الجهل الذى ضربه الإله الصانع على الإنسان .

وفى النهاية ، فإن قضية عبادة الشيطان أعمق بكثير من مجرد الاستيراد، أو أولاد الذوات ، وعند التحليل المتعمق للظاهرة ، سنجد فى الأغلب أن معدل التغريب والعلمنة بين أولئك الشباب عالية للغاية وأنهم فقدوا جذورهم الدينية والثقافية تماما ، كما أننا سنكتشف أنهم " يتامى " ، فالأب والأم إما مشغولان أو منفصلان أو مهاجران . ومن ثم فإن الحيز الإنسانى فى حياة كثير منهم ، الحيز الذى يتعلمون فيه القيم وكيف يكون الإنسان، هذا الحيز إما أنه ضمر أو اختفى [1]

❊❊❊

[1] لمزيد من التفاصيل انظر : د. عبد الوهاب المسيرى ، دراسات معرفية فى الحداثة الغربية ، مكتبة الشروق الدولية ، الطبعة الأولى ، 1427هـ/ 2006 م ، ص 290 - 300 .

المبحث الخامس

الهيمنة الاستهلاكية الأمريكية على العالم

حدد الاقتصادى الأمريكى "**روستو**" مراحل التنمية الاقتصادية التى يمر بها التطور الاقتصادى لأى دولة تريد أن تصل إلى أعلى درجات التقدم والازدهار الاقتصادى التى وصلت إليها الولايات المتحدة الأمريكية واليابان ودول أوربا الغربية. وتتلخص هذه المراحل فى :

1- مرحلة المجتمع التقليدى .

2- مرحلة التمهيد للانطلاق .

3- مرحلة الانطلاق .

4- مرحلة النضج الاقتصادى .

5- مرحلة الاستهلاك الوفير .

وما يهمنا هنا أن الولايات المتحدة الأمريكية بدأت فى الوصول إلى المرحلة الأخيرة من التطور الاقتصادى وهى مرحلة الاستهلاك الوفير عامى **1913** ، **1914** م ، وبلغت قمتها فى الثلاثينيات وبعد الحرب العالمية الثانية خلال القرن العشرين . أما دول أوربا الغربية واليابان فإنها دخلت مرحلة الاستهلاك الوفير فى النصف الثانى من القرن العشرين ، بعد الدفعة القوية التى أحدثها مشروع مارشال لاقتصادياتها المدمَّرة خلال الحرب العالمية الثانية .

يؤدى دخول أى دولة مرحلة الاستهلاك الوفير إلى ارتفاع متوسط دخول الأفراد بنسبة تفوق ما يحتاجون إليه من سلع وخدمات . كما تقوم الدولة بتخصيص نسبة كبيرة من الأموال للأهداف العسكرية داخليا وخارجيا. كذلك الزيادة الكبيرة فى إنتاج

السلع المعمرة مثل: السيارات، والثلاجات، ومكيفات الهواء، والغسالات وغيرها من سلع الاستهلاك الترفي . ويتم تطوير إنتاج هذه السلع بظهور موديلات جديدة منها كل فترة زمنية ربما تكون أقل من عام .

وقد توقف روستو عند مرحلة الاستهلاك الوفير هذه ولم يستطع التنبؤ بما سيحدث في المستقبل في هذه الدول المتقدمة .

إن مرحلة الاستهلاك الوفير قد وفرت كل العناصر المادية اللازمة للحياة المترفة ، وهي بذلك وفرت كل احتياجات الجسد البشري ، ولكنها أخفقت في توفير أدنى اهتمام للحياة الروحية ، حيث إن الإنسان جسد وروح، لكل منهما متطلبات مختلفة ، الجسد له متطلبات مادية ، والروح لها متطلبات معنوية . وقد فشلت الحضارة الغربية المادية في الوفاء بمتطلبات الروح ، وتكفلت فقط بتحقيق كل المتطلبات المادية لإشباع الرغبات الجسدية عن طريق العلم و التكنولوجيا والتخطيط الدقيق الذي يستند إلى عمليات حسابية ومعدلات رياضية .

وهكذا أصبح الهدف من وجود الإنسان على الأرض ليس البحث عن الحق والخير والجمال والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإنما أن يدخل الإنسان حلقة الإنتاج والاستهلاك المفرغة ، فينتج ليستهلك ويستهلك لينتج وهكذا . وهكذا تم الفصل بين الروح والجسد ، بين المشاكل الجسدية ومسائل الضمير ، بين ظاهر الإنسان وباطنه .

ولم تكتف الدول المتقدمة وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية بنشر منتجات الاستهلاك الوفير بين شعوبها ، ولكنها أيضا تحاول بكل السبل أن تنشر هذه الأنماط من الاستهلاك بين بقية شعوب الأرض . ويمكن من خلال بيان بعض منتجات ورموز مرحلة الاستهلاك الوفير ، نرى مدى تغلغل أنماط الاستهلاك هذه في كثير من دول العالم :

1- **البنطلون الجينز** : يعتبر من أهم رموز الحضارة الغربية ، ترتديه أعداد متزايدة من الشباب من الجنسين ، بل إن كثيراً من كبار السن يرتدونه أيضا . ويتسم البنطلون الجينز بالبساطة التامة ، فهو ليس أكثر من قماش سميك يمكن استخدامه

فى صناعة الحقائب والمظلات وأشياء أخرى . وقد تم صناعته بطريقة بسيطة لا تختلف من مكان إلى آخر ولا تتغير من عام لآخر ، وهو بذلك لا يعبر عن أى اختلاف زمانى أو مكانى .

يوضع على الجيب الخلفى للبنطلون العلامة التِّجارية للشركة المنتجة لتكون بمثابة إعلان عنها ، حتى تراها الأعين . ويتوقف سعر البنطلون حسب «الماركة» ، و«الماركة» أكثر أهمية من البنطلون ذاته . وقد تنبهت إحدى الشركات فى سنغافورة إلى هذه الحقيقة فقامت بصناعة بنطلونات علامتها التجارية من الذهب الخالص ، وبذلك أصابت الهدف المطلوب ، البساطة فى القماش، وطريقة التفصيل والتركيز على العلامة الموضوعة على الجيب الخلفى ، وقد حققت من وراء ذلك مكاسب ضخمة .

2- الـ " **تى شرت** " وهو قطعة من القماش فى غاية البساطة تم تفصيلها بطريقة فى غاية البساطة ، لا تختلف فانلة من هذا النوع سواء تم شراؤها من نيويورك، أو لندن، أو القاهرة، أو أى مكان آخر فى العالم . وتستخدم فى الإعلان عن منتج معين أو نادٍ معين، أو مكان زاره صاحب الفانلة أو عن معتقداته وغير ذلك . بل قد يكتب على الفانلة عبارات ربما يجهل من يرتديها المعنى الحقيقى لهذه العبارات . على سبيل المثال قد تجد فى الشارع المصرى فتاة تسير وهى ترتدى فانلة مكتوب عليها " I am easy " ، ربما فهمت الفتاة المسكينة أن معنى العبارة **"بنت طيبة"** أو**"سهل التعامل معها"**، ولكنها لو علمت المعنى الحقيقى لهذه العبارة لترددت كثيرا فى ارتدائها . ومهما كان مضمون الرسالة المنشورة على الـ" **تى شـ ـيرت** " فإنها تفترض أن صاحب هذا الرداء بسيط ، لا يمانع فى أن يكون إعلانا متحركاً عن أشياء بسيطة .

3- **الإعلانات** : بصورها المتعددة فى مختلف وسائل الإعلام ، عادة ما يكون مركز الإعلان سلعة معينة ، يصور للإنسان أنه يشتهيها وأنه سيحقق السعادة الكاملة لنفسه ولمن حوله إن حصل عليها . فهو إن ارتدى ساعة ماركة كذا فإنه سيصبح مركز اهتمام كل النساء ، خاصة الجميلات منهن ، وإن استخدم العطر ماركة كذا

فإن سحره لن يقاوم... وهكذا . وفى الغالبية العظمى من الإعلانات يتم استخدام الدافع الجنسى عند الإنسان ، بشكل صريح أحيانا وبشكل ضمنى أحيانا أخرى. فاللذة التى سيحصل عليها الإنسان من الشىء المعلن عنه مرتبطة دائماً باللذة الجنسية. ولعل استخدام الإعلانات للبعد الجنسى للإنسان هو اكتشاف لطاقة لا تنفد داخل الإنسان . والطاقة الجنسية فى الإعلانات منعزلة تماما عن الحب أو الزواج .

4- ساندوتش الهامبورجر : وهو يصنع بطريقة بسيطة وعلى نمط واحد ، ولا يختلف من مكان إلى آخر ، فإذا دخلت أحد محلات «الهامبورجر» فإنك ستأكل «ساندوتش» مثل الذى أكلته من قبل تماما دون أى تغيير . نفس البائع ، نفس الديكور ، نفس الابتسامة ، لا مجال لأى إبداع فى إعداده أو مكوناته . هذا «الساندوتش» يتناوله الإنسان بمفرده وليس مع العائلة ، يمكن أن يأكله الإنسان وهو يسير أو هو جالس أو هو يزاول عمله ، فهو طعام الفرد الذى يتحرك فى الحياة العامة . قد اكتسح «الهامبورجر» كل الحضارات وانتشرت محلات بيعه فى جميع دول العالم تقريبا.

تجب الإشارة إلى أن «الهامبورجر» طعام سيِّئ للغاية وله العديد من الآثار الضارة على الصحة البشرية خاصة صغار السن الذين يصابون بالبدانة ، وزيادة الوزن، وما يتبع ذلك من إصابة بضغط الدم، والسكر، والقلب، وغير ذلك من الأمراض القاتلة .

هذه إشارة عابرة عن بعض منتجات الحضارة الغربية المنفصلة عن القيم الدينية والإنسانية . إن قيم ومنتجات هذه الحضارة وصلت إلى كل أطراف المعمورة بسرعة خاطفة سواء فى أدغال إفريقيا أو أعالى جبال الهمالايا أو المدن الصغيرة فى برارى روسيا وغير ذلك من أصقاع الأرض، لذلك يطلق عليها حضارة الاستهلاك العالمية .

إن جذور حضارة الاستهلاك العالمية أمريكية لأنها ظهرت فى أول أمرها فى الولايات المتحدة الأمريكية . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن المجتمع الأمريكى مجتمع استيطانى مثله مثل المجتمع الإسرائيلى ، مجتمع قائم على مهاجرين من خليط بشرى ،

ولاءاته غير محددة ، وانتماءاته غير واضحة . يحاول أعضاء هذا الخليط التخلص من أى قيم حملوها من مجتمعاتهم التى جاءوا منها حتى يندمجوا فى المجتمع الجديد بكل ما يتطلب من تبسيط للشخصية الإنسانية وتَخَلٍّ عن مسائل الضمير وتساؤلاته . هذا إلى جانب أن المجتمع الأمريكى ليس له امتداد زمنى طويل فهو يرجع إلى فترة ما بعد اكتشاف الأمريكتين .

لذلك فإن المجتمع الأمريكى بحكم تكوينه الاقتصادى والتاريخى والحضارى مهيأ أكثر من غيره من المجتمعات لإنتاج سلع الحضارة الجديدة واستهلاكها ، وأهم من ذلك تصديرها ، وسلع هذه الحضارة من السهل تصديرها لأن التأقلم عليها واستهلاكها لا يتطلب جهداً كبيراً ، وتتكفل الإعلانات المختلفة عنها بخلق الرغبة فى شرائها واستهلاكها.

لقد بدأت سلع هذه الحضارة فى طرد كثير من سلعنا ومنتجاتنا لتحل محلها ، ولينظر القارئ إلى الإعلانات التى تبثها القنوات التليفزيونية سواء الحكومية أو الفضائيات الخاصة، وسواء فى مصر، أو فى غيرها من الدول العربية ، تلك الإعلانات تبشر بالسلع التى تجلب السعادة وتلمح إلى اللذة الجنسية الموعودة ، والتى تم اختيار نجومها بعناية شديدة حتى يكونوا أبعد ما يكون من أى شىء له علاقة بعالمنا العربى . فالمطلوب هو تجاوز الزمن والمكان لنسقط فى اللازمان الاستهلاكى ، وهى عملية لا ينتج عنها سوى ازدياد غربتنا عن بيئتنا وقيمنا وديننا ، فنحن نجيد التعامل مع منتجاتنا ، فهى تعكس شيئا ما بداخلنا يشعرنا بالطمأنينة . أما عندما ندخل أحد هذه المحلات والمقاهى الجديدة ونرى العاملين المرتدين ألوانا لا علاقة لها بأى بيئة ، ونسمع موسيقى لا أصل لها ، ونأكل طعاماً لا ملامح له ، فإننا نرى الواقع كشىء خارج عنا .

ولنا أن نتساءل ، هل يمكن لهذه الحضارة التى تشجع ظهور نمط فردى ، غير مُنْتَمٍ واستهلاكى ، أن تخدم مصالح مجتمعنا ؟ كيف يمكن أن نقنع الناس بضرورة الترشيد والتقشف فى الاستهلاك ، والإعلانات بصورها المختلفة تطارد الإنسان أينما كان ، سواء فى منزله، أو عمله، أو حتى الشارع والطريق الذى يسير فيه ، من أجل إشاعة

رؤية للحياة مضمونها أن الإنسان وجد فى هذا الكون لكى يحقق أكبر قدر من اللذة باستهلاك أكبر قدر ممكن من السلع ، بغض النظر عن أى قيم دينية أو إنسانية !

إن مثل هذه الإعلانات المستفزة فى ظل زيادة مساحة الفقر فى العالم العربى ، أدت إلى زيادة الشعور بالاغتراب، وظهور العديد من الأمراض والعقد النفسية ، بسبب الإحباط الذى يصيب الكثيرين لعدم مقدرتهم على تلبية احتياجاتهم الأساسية ، فضلا عن التطلعات المتزايدة التى تخلقها الإعلانات المختلفة .

❊❊❊

المبحث السادس

الفيديو كليب

تدور عجلة " **التطور** " و " **التقدم** " ويزداد فصل القيم الدينية عن مجمل حياة الإنسان، ويظهر الفيديو كليب . الفيديو كليب عبارة عن فيلم سينمائى قصير يحتوى على أغنية ورقص ، وشىء يشبه التمثيلية .

يقول الدكتور/ عبد الوهاب المسيرى فى كتابه الرائع " **دراسات معرفية فى الحداثة الغربية** " ، بعد دراسة متأنية للفيديو كليب استغرقت ساعات طويلة أمام التليفزيون أقلب من قناة راقصة إلى أخرى أكثر عريا ، اكتشفت أنه مما يساعد الفيديو كليب على اقتحام حياتنا ما أسميه " **الرقص الأفقى** " . كلنا يعرف الرقص الرأسى حيث ترقص الراقصة، وهى واقفة على قدميها مع التلوى والتمايل فقط . أما الرقص الأفقى فهو مختلف تماما إذ تنام الراقصة (**المغنية**) على الأرض وهى نصف أو ربع عارية ثم تحرك ما يمكن تحريكه فى جسدها بصورة مثيرة لأسباب لا تغيب عن بال أى مشاهد . هذا الرقص أكثر تأثيرا وإثارة ويجعل المشاهد يستسلم لإغواء الصورة ويرفع الرايات البيضاء والخضراء والحمراء وكل الألوان ! .

الرقص البلدى يهدف للإثارة الجنسية بشكل واضح وصريح ، لكننا كنا لا نراه إلا فى الأفلام وفى الأفراح والليالى الملاح ، فهو جزء من حياة "**العوالم**" ، أى أننا كنا نعرفه بوصفه جزءاً من عالم مستقل عن عالمنا وحياتنا ، وقد نتمتع به وقد نرفضه ، وفى كلتا الحالتين هو ليس جزءاً من عالمنا وحياتنا .

أما «الفيديو كليب» فهو يأتى إلينا فى عقر دارنا من خلال شاشات تليفزيوناتنا ، ويقدم لنا باعتباره شيئا عاديا طبيعيا وجزءا من عالمنا ، وكأنه من صميم حياتنا اليومية العادية . وبدل أن نذهب إلى الكباريهات لنشاهد الرقص الجنسى الصارخ جاء هو

إلينا، على سبيل المثال ، فى إحدى أغنيات الفيديو كليب ظهرت المغنية تسير فى الشارع بشكل عادى جداً وهى ترتدى بدلة الرقص ، ثم ظهرت بملابس عادية ، واستمرت فى الرقص البلدى . ويلاحظ أن الرقص البلدى هنا ليس رقص المحترفات وإنما يشبه الرقص الذى ترقصه بناتنا الطيبات فى المناسبات العائلية ، وبذلك يتم إزالة الحواجز بين حياتنا اليومية والرقص البلدى، ويتم تطبيعه تماما . وقد تم تعميق هذا الاتجاه فى الأغنية الثانية لنفس المغنية ، حيث تظهر بملابس رياضية وبفستان سهرة وبملابس تشبه ملابس فتيات المدارس المراهقات ثم ملابس أرملة ، وفى داخل كل هذه الملابس العادية تقوم المغنية بحركات أقل ما توصف أنها غير عادية فهى حركات " ك.ده " . وفى الجزء الأخير من الأغنية يتم تأكيد الاتجاه نحو التطبيع ، فهو عبارة عن فيديو هوم (منزلى) تظهر فيه المغنية مرتدية ملابس عادية، وتذهب إلى الكوافير ، ويظهر وجهها فى إحدى اللقطات فى منتهى البراءة وكأنها طفلة . إن عملية التطبيع هذه تجعل راقصة الفيديو كليب جزءًا من حياتنا اليومية العادية ، وربما تكون المثل الأعلى الذى يحتذى به من قبل الفتيات .

الفيديو كليب لا يقدم أنثى تغنى وترقص وتتعرى وتتلوى، بل إنه يعبر عن رؤية كاملة للحياة . هذه الرؤية تنطلق من الفرد الذى يبحث عن متعته مهما كان الثمن ، والمتعة فى الفيديو كليب متعة جنسية ، وهى متعة بسيطة تستبعد عالم الموسيقى والطرب وجمال الطبيعة وكل العلاقات الإنسانية الأخرى ، والفيديو كليب بتركيزه على هذا الجانب وحده يؤدى إلى تأجج السُّعار الجنسى فى مجتمع فيه أزمة زواج بسبب انتشار الفقر . ومن المعروف أن تصعيد الشهوات الجنسية مرتبط تماما بتصعيد الشهوات الاستهلاكية ، وهذا ما أدركته صناعة الإعلانات ، لذلك تلجأ الكثير من الإعلانات إلى الجنس لبيع السلع ، فالسُّعَار الجنسى يفصل الفرد عن مجتمعه وأسرته ومنظومة القيم الدينية والاجتماعية ، فيحاول تحقيق ذاته من خلال المتعة الفردية، والمنفعة الشخصية ، فهي التى تترجم عن نفسها عادة فى استهلاك المزيد من السلع .

إن الفيديو كليب يختزل الأنثى (والإنسان ككل) إلى بعد واحد هو الجسد ، فيصبح الجسد هو المصدر الوحيد للهوية الإنسانية ، وهى هوية ذات بعد واحد لا تنوع فيها . ومن هنا يأتى التكرار المميت فى الفيديو كليبات .

الفيديو كليب مرتبط تمام الارتباط بالعلمانية ، التى ترى أن الإنسان يبحث دائما عن المتعة الشخصية ، ويدور فى دائرتها الضيقة خارج أى منظومة قيم دينية أو إنسانية ، فهو إنسان جسمانى استهلاكى ، لذلك فإن ولاءه لذاته فقط ، الأمر الذى يؤدى إلى تآكل ولائه لأسرته ، ومجتمعه ووطنه، وهذا هو المطلوب تماما أن ينفصل الإنسان عن أسرته ووطنه ليذوب فى العولمة . وهذا ما يفعله الفيديو كليب ، فإذا نظرنا إلى خلفية الفيديو كليب سنجد أنها لا أرض لها ولا وطن ، فأحيانا الخلفية هندية ، وأحيانا أخرى أمريكية ، وثالثة أوروبية ، والبنات فى معظم الأحيان شقراوات ، وحتى لو كن من بنات البلد فما يلبسنه (**أولا يلبسنه**) من ملابس لا علاقة لها بما نعرفه فى حياتنا . كما أن أبطال الفيديو كليب عادة ما يركبون سيارات فارهة وأحيانا يظهرون فى قصور، وكل هذا يصعد ويؤجج الشهوة الاستهلاكية ويضعف الانتماء .

بعد هذه المقدمة الطويلة يمكن الآن أن نضع الفيديو كليب فى نطاق أوسع، وهو نطاق العولمة . فجوهر العولمة هو تنميط العالم بحيث يصبح العالم بأسره وحدات متشابهة ، هى فى جوهرها وحدات اقتصادية تم ترشيدها ، أى إخضاعها لقوانين مادية عامة مثل قانون العرض والطلب ، والإنسان الذى يتحرك فى هذه الوحدات هو إنسان اقتصادى جسمانى لا يتمتع بأى خصوصية أو هوية ، ليس به انتماء واضح ، ذاكرته التاريخية قد تم محوها ،وإلا لما أمكن فتح الحدود بحيث تتحرك السلع ورأس المال بلا حدود أو قيود ، والخصوصيات الثقافية والأخلاقية تعوق مثل هذا الانفتاح العالمى. وفى غياب الانتماء والهوية والقيم الدينية والاجتماعية تتساوى الأمور ، ويصبح من الصعب التمييز بين الخير والشر ، وبين العدل والظلم ، وبين الجميل والقبيح وتسود النسبية المطلقة .

إن العولمة هى فلسفة ما بعد الحداثة ، ويطلق عليها "anti-foundationalism" وترجمتها الحرفية " **ضد الأساس** " أو "**رفض المرجعيات**" أى رفض أى مرجعيات دينية أو إنسانية أو اجتماعية ، مما يعنى السقوط فى اللاعقلانية . ويؤكد ذلك قول "**رورتى**" إن ما بعد الحداثة (**العولمة**) تعنى أن الإنسان لن يقدس شيئا حتى ولا نفسه ، أى إنها ليست معادية للدين والأخلاق فقط ، بل معادية للإنسان ذاته .

إن الجسد المجرد لراقصات الفيديو كليب لا علاقة له بأى خصوصية تاريخية أو اجتماعية أو ثقافية ، ولذلك فإنه يقوض الذاكرة الاجتماعية والتاريخية ، وهذا هو جوهر العولمة (**ما بعد الحداثة**) أى أن الإنسان يعيش داخل رؤيته الصغرى ، أما القصة الكبرى الاجتماعية والتاريخية التى تنطوى تحتها كل القصص الصغرى فلا وجود لها ، فتتساقط القيم والمرجعيات، وتظهر الراقصة الرأسية والأفقية ، والشركات عابرة القارات التى تود أن يكون الإنسان حُزمة نمطية من الرغبات الاقتصادية والجسمانية التى يمكن التنبؤ بسلوكها ، حتى يمكن التحكم فى صاحبها وتوظيفه داخل منظومة السوق .

إن القنوات الفضائية التى تذيع الفيديو كليبات تصل إلى منازلنا، وتداعب أحلامنا وتعيد صياغة رؤانا وصورتنا لأنفسنا وللآخرين ، ودافعها الوحيد هو الربح المادى ، وليس الاستنارة أو تعميق إدراك الناس لما حولهم، فهو مشروع رأسمالى طفيلى يبحث عن الربح المادى،الذى أدى إلى التنافس بين المخرجين والمغنين والممولين ولم تكن نتيجته الارتقاء بالمستوى الفنى والجمالى ، وإنما المزيد من الإسفاف والاغتراب والعرى الذى سيتزايد حتما مع الأيام .

ومن يود أن يعرف إلى أين نحو ذاهبون ؟! فعليه أن يشاهد فضائية MTV ، وعليه أن يعرف أن هناك مقهى فى القاهرة يسمى "Evolution " أى " **التطور فى اتجاه غيرمعلوم**" ، هذا المقهى يقدم مشروبا يسمى "Blue lesbian" أى " **المساحقة الزرقاء**" ، وهى محاولة لتطبيع الشذوذ، لا تختلف فى جوهرها عن تطبيع الرقص والإثارة الجنسية ، وهذا أمر أقل ما يوصف أنه مفزع !!

وفى النهاية ، هل من سبيل لوقف هذا التدهور الأخلاقى المستمر ؟ ، قد يكون رد البعض أن هذا يمثل تدخلا فى حرية الفكر والفن والإبداع ، والرد على هؤلاء أن الفيديو كليب ليس إبداعا ولا فكرا ولا فنا ، هدفه الأول هو استغلال الإنسان وتحقيق أكبر ربح مادى ممكن . وإن كان الفيديو كليب فنا أو فكراً فعلى من يروجه ويدافع عنه أن يلتزم بأمرين هما :

الأول : ألا يحققوا من ورائه أى ربح مادى .

الثانى : أن يمارسوه فى حياتهم الشخصية مع زوجاتهم وأمهاتهم وبناتهم وأبنائهم .

ولا أعتقد أن يكون هناك من يجد الشجاعة فى نفسه أن يفعل ذلك !